



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 02/02/2024
تاريخ القبول: 30/06/2024

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الممارسة الدينية والعائلة الجزائرية: قراءة سوسيولوجية (دراسة ميدانية
بمنطقتي حاسي مسعود والطيبات)

***Sociological Examination of Religious Practices
within the Algerian Family: Insights from a
Field Study in HassiMessaoud and El Taïbet
Regions***

كلثوم بن زغمان^{1*} ، أ.د/خيرة بغداددي²

¹جامعة قاصدي مرباح ورقلة

(الجزائر)،² keltoumbenz2015@gmail.com جامعة قاصدي مرباح ورقلة

(الجزائر)، beghdadikheira7@gmail.com

الملخص: تشير العديد من المقاربات والدراسات السوسيولوجية إلى تراجع الدين وتفككه في المجتمعات الرأسمالية، في حين يشير الباحثون والمهتمون بالمجتمعات العربية عموماً إلى حضوره المكثف اجتماعياً، ونجاحته في بعث هوية جماعية في مناسبات عدة؛ ويفسرون ذلك بطبيعة هذه المجتمعات الأبوية المستحدثة.

في هذا الصدد، جاءت هذه الورقة البحثية لمحاولة فهم العلاقة بين الممارسة الدينية والعائلة في المجتمع الجزائري. وقد اعتمدنا لأجل ذلك المنهج الكيفي، الذي يقوم على الفهم والتأويل والتفسير، مستخدمين تقنيي الملاحظة والمقابلة في جمع البيانات. تمكنا في هذا الإطار من تمييز نمطين للممارسة للدينية في المجالين المرصودين: أحدهما يبدي صلة وثيقة بالعائلة في عدة أوجه، والآخر يظهر استقلاليتها عنها.

الكلمات المفتاحية: الممارسة الدينية؛ العائلة؛ المجال عمراني؛ المجال الاجتماعي؛ الهوية.

ABSTRACT

Several sociological frameworks and investigations suggest a diminishing and breakdown of religious influence within capitalist societies. Nonetheless, scholars and observers with a focus on Arab societies underscore its robust social impact and efficacy in molding collective identity across diverse circumstances. This phenomenon is often ascribed to the inherent characteristics of these recently formed patriarchal social structures. In this context, this research paper aims to comprehend the relationship between religious practices and familial dynamics within Algerian society. We employed a qualitative methodology, emphasizing understanding, interpretation, and explanation, utilizing observation and interviews for data collection. Within this framework, we identified two patterns of religious practice in the examined domains: one characterized by a profound association with the family across multiple dimensions, and the other marked by a manifestation of independence from familial ties.

Keywords: Religious practice; Family; Urban domain; Social domain; Identity.

* المؤلف المرسل لا يكتب اسم المؤلف تبقى فقط المؤلف المرسل

1. مقدمة:

حظي الدين بمكانة مميزة في أعمال المفكرين والباحثين منذ القدم، وقد لا يعد هذا غريبا إذا ما ألقينا نظرة على تاريخ البشرية، وكيف أنه يصطبغ بالدين و يزخر برموزه، وهو ما راكم زخما فكريا واسعا شمل مختلف العلوم الاجتماعية والانسانية، بدء من الفلاسفة ناهيك عن علم الاجتماع.

يميل جل علماء الاجتماع إلى تأكيد قوة الدين في المجتمعات التقليدية ما قبل الرأسمالية، كما يميلون إلى تأكيد أفوله في المجتمعات الحديثة، فهم بذلك يربطونه بالكنيسة التي عرفت تراجعاً و تقهقراً مع صعود الدولة الحديثة. لكن سقوط الكنيسة قد يكون فرصة لميلاد أشكال دينية جديدة، هذا ما يرجحه بعض الباحثين .

بالانتقال إلى المجتمعات العربية والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص، فإن جل الأعمال التي أنتجت في هذا الصدد، تشير إلى أن المجتمع العربي بوصفه مجتمعا أبويا أو أبويا مستحدثا، تأخذ العائلة وروابطها مكانة مركزية فيه، أما الدين فهو عقيدته التي تعمل على تأكيده و ارسائه وتجذره.

وهو الطرح الذي نحن بصدد مراجعته والتحقق منه، ومحاولة الغوص في العمق، لفهم أكثر للممارسة الدينية في المجتمع الجزائري، مستعينين بجملة من المفاهيم في ضوء مقارنة الهوية والمجالات الاجتماعية.

لعله من الجدير أن نطرح - في خضم هذا- التساؤل التالي:

- كيف تعمل العائلة كمجال تفاعل على رسم أبعاد أو نموذج الممارسة الدينية لدى الفرد الجزائري في الوقت الراهن؟

2. الدين في المنظورات السوسيولوجية

لقي الدين اهتمام السوسيولوجيين منذ نشأة علم الاجتماع، فتنطرقوا له بالبحث والدراسة بدء بالرواد الأوائل لعلم الاجتماع من أمثال دوركايم وفير و ماركس، وفيما يلي سنحاول إيجاز بعض أهم هذه المنظورات.

1.2 المنظور الوظيفي:

أبرز الأعمال التي اهتمت بدراسة الدين في المنظور الوظيفي هي تلك التي قام بها إميل دوركايم، حيث خصص عملا مستقلا لدراسة الدين، بعد التماسه لأهميته ودوره في دراسته للانتحار. حمل مؤلفه عنوان " الأشكال الأولية للحياة الدينية " ويعد مرجعا أساسيا للسوسيولوجيين والأنثروبولوجيين على حد سواء.

يركز المنظور الوظيفي في دراسته للدين عموما على الوظائف الاجتماعية التي يشغلها الدين خصوصا تلك التي تتعلق بتحقيق التماسك الاجتماعي، فالدين وفق ما أشار إليه دوركايم، يمثل اللحظة التي تشكل فيها الوعي الاجتماعي متجاوزا الأفراد ومتمحورا حول مفهوم المقدس، و منتجا شكلا من أشكال القواعد الجماعية والتي ينتظم وفقها نظام الموجودات.

تراجع الدين لحساب العقلانية في المجتمع الحديث خلق نوعا من أنواع الأنوميا أو اللامعيارية، والتي تعد نوعا من أنواع الاضطراب الناجم عن انهيار المعايير والقيم، لذا يقترح دوركايم إيجاد نظم أخلاقية بديلة للحفاظ على بقاء المجتمع.

رغم أن المنظور الوظيفي قد عالج زاوية مهمة في دراسته للدين وعلاقته بالمجتمع، إلا أن تركيزه واقتصاره عليها يوحي بنظرة إيجابية مثالية تفاؤلية وشمولية أيضا بشأن الدين، فوظيفة الدين في المجتمع تعد زاوية من عدة زوايا لا بد من إيلائها الأهمية أيضا عند دراسة الدين، وإن كانت ذات أهمية فإن الاقتصار عليها سيكون بلا شك تناولا مضللا.

2.2. المنظور الفيري

يعد ماكس فيبر من أبرز رواد علم الاجتماع، و يرى أن علم الاجتماع يختص بدراسة الفعل الاجتماعي، و أن على عالم الاجتماع فهم المعاني التي يضيفها الأفراد على أفعالهم.

لا يمكن الحديث عن الاسهامات السوسيولوجية المتعلقة بالدين دون الحديث عن تلك التي قدمها ماكس فيبر و التي ترتبط بشكل أساسي بمؤلفه الأول والشهير " الأخلاق البروتستنتية و روح الرأسمالية " والذي يبدو أنه يقدم من خلاله طرحا معاكسا لما قدمه كارل ماركس و يقلبه رأسا على عقب، ففي حين يرى ماركس أن الأفكار و المذاهب الدينية كبنية فوقية هي وليدة ظروف اقتصادية معينة (بنية تحتية)، فإن فيبر يعتقد أن بإمكان الأديان أن تكون من عوامل التقدم و تدفع المجتمعات نحو التغيير الاجتماعي، وهو ما وضحه من خلال تحليله لأوجه الشبه بين الأخلاق البروتستنتية و المذهب الرأسمالي، وهكذا " يبين فيبر بأن عقلنة الأفعال في الحياة اليومية التي يجلبها الآباء المؤسسون للبروتستنتية قد شجعت انطلاقة الرأسمالية " (كابان و دورتيه ، تر : اياس حسن ، 2010 ، ص 48)

لقي طرح فيبر نقدا واسعا، لعل من أبرزه ذلك الذي يشير إلى أن الرأسمالية لم تتطور بالوتيرة نفسها في البلدان التي تعرف انتشار البروتستنتية فيها. لكن الجدير بالذكر، أن فيبر ينحو إلى تفسير متعدد الأسباب للظواهر الاجتماعية، وعلى هذا الأساس لا يمكن النظر إلى البروتستنتية بوصفها الشرط الوحيد لتحقيق الرأسمالية، كما أنه ينفي في مؤلفه بالذات، اعتبار دراسته دراسة متكاملة في هذا الصدد.

3.2 المنظور الماركسي :

يركز المنظور الماركسي على مفهوم الصراع، ويرى بأن المجتمع يتكون من بنيتين أساسيتين هما : البنية الفوقية (الفكر، الثقافة، الدين، ...) والبنية التحتية (الاقتصاد)، وأن هذه الأخيرة تتحكم في سابقتها وتوجهها.

ويرى هذا المنظور أن موضوع الصراع يدور في جوهره بين طبقتين أساسيتين هما الطبقة المالكة لوسائل الانتاج و الطبقة العاملة أو الكادحة، ويتعلق هذا الصراع بحيازة السلطة.

يعد الدين في المنظور الماركسي جزء من البنية الفوقية، وهو أحد مرادفات الأيديولوجيا. و يمكننا أن نشير في هذا الصدد إلى طريحين أساسيين، يتعلق الأول بما أشار إليه كارل ماركس، أما الثاني فهو ما تعرض له صديقه أنجلز.

تعد مقولة كارل ماركس الشهيرة " الدين أفيون الشعوب " مقولة تلخص نظرة ماركس نحو الدين، فهو يعتبره غشاء أيديولوجيا يحافظ على النظام الاجتماعي القائم على عدم المساواة، فيوظفه ملاك وسائل الانتاج لمنح علاقات السلطة صفة شرعية، ولنشر وعي زائف بين أفراد الطبقة العاملة تجعلهم راضين بالقمع واللامساواة بوصفها مشيئة الله.

من جهة أخرى، يرى أنجلز أن الدين غشاء أيديولوجي توظفه الطبقة المستضعفة أيضا، فيكون بذلك " اللغة السياسية للطبقات الاجتماعية الخاضعة التي ترنو للانعتاق من أوضاع القهر " (أكوافيغا و باتشي ، تر : عناية ، 2011، ص 57).

تتفق المقاربتين السابقتين في كون أن الدين ليس له استقلالية، بل هو مجرد غشاء أيديولوجي توظفه الطبقة المهيمنة أو المستضعفة للتعبير عن موقعها الاجتماعي والاقتصادي، وذلك ما يدفع غرامشي - لاحقا - إلى دمج الفكرتين في طرح موحد، حيث سيشير إلى الدين بوصفه شكلا من الأشكال الثقافية الذي قديعمل كأحد أدوات الهيمنة إذا كان ينتمي إلى طبقة " الصفوة "، أو سيعمل كأحد أدوات الهيمنة المضادة إذا كان ينتمي لطبقة المقموعين.

بذلك فإن المنظور الماركسي والذي يركز على فكرة الصراع، يهتم بالدين باعتباره أحد الأدوات التي تديره، فتوظفه كل من الطبقتين، المالكة لوسائل الانتاج أو الفاقدة لها وفق ما يخدمها.

4.2 المنظور النقدي :

يشار إلى هذا المنظور أيضا بمدرسة فرانكفورت، ومن ألمع روادها نجد : ماكس هوركهايمر و ثيودور أدورنو و هيربرت ماركيز. و جاءت تسمية هذا المنظور من اهتمامه بنقد الرأسمالية و المجتمع الحديث عموما باعتبارهما منشأ الهيمنة والاعترا ب للفرد المعاصر.

ينظر المظرون النقديون إلى الدين باعتباره مؤسسة تساعد في الحفاظ على أنماط عدم المساواة الاجتماعية، فعلى سبيل المثال يتمتع الفاتيكان بكمية هائلة من الثروة، في حين أن متوسط دخل الرعية الكاثوليكية صغير. ووفقا لهذا

المنظور، فقد تم استخدام الدين لدعم " الحق الالهي " للملوك القمعيين ولتبرير الهياكل الاجتماعية غير المتكافئة مثل النظام الطبقي في الهند.

يهتم المنظرون النقديون بالطريقة التي تروج بها العديد من الأديان لفكرة أن المرء يجب أن يكون راضيا بالظروف الحالية لأنها أمر إلهي، حيث تم استخدام هذه الديناميكية من قبل المؤسسات الدينية لعدة قرون لإبقاء الفقراء فقراء، وتعليمهم أنهم لا ينبغي لهم أن يهتموا بما يفتقرون إليه لأن مكافأهم ستأتي بعد الموت.

يشير المنظرون النقديون أيضا أن من هم في السلطة غالبا ما يكونون قادرين على منح تفسيرات للنصوص الدينية، كما يلجؤون لتوظيف الخطاب الديني لصالحهم، ولعل تصريح جورج بوش الابن في أحداث الحرب على العراق مثال على ذلك، حيث أدلى بأن " الله " أمره بإنهاء " الطغيان " في العراق.

على هذا الأساس، يجد المنظور النقدي في مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة فرصة لتحقيق الديمقراطية، فالسياسة العامة التي تقوم على معتقدات دينية غير عقلانية وعلى الوحي بدل الأدلة العلمية تقوض تحقيق الديمقراطية و لا تسمح بالتدقيق في عملية صنع القرار. (Little and Givern , 2014 , pp 480-481)

الجدير بالذكر، أن النظرة التشاؤمية للدين في هذا المنظور قد تراجعت مع الوقت، وتحديدًا في كتابات يورغن هبرماس أبرز مفكري مدرسة فرنكفورت المتأخرين، حيث أقر في عدة مناسبات أن العقل (أو العلمنة) لم يتمكن من تجاوز الايمان، لذا يدعو لتجاوزهما بدل الحرب دون ابتلاع أحدهما للآخر.

مما سبق، نجد أن كل منظور من المنظورات السوسيولوجية السابقة قد سلط الضوء على جزئية معينة في دراستها أو مناقشتها لموضوع الدين ، فإن كانت الوظيفية مهتمة بوظيفة الدين في المجتمع، وكيف يعمل على الحفاظ عليه، فإن فيبر على ما يبدو قد أولى أهمية لعملية التغير الاجتماعي، وكيف يساهم الدين في تحقيقها، أما ماركس فلا يرى في الدين إلا مجرد كونه انعكاسا أيديولوجي يغطي على العلاقات غير المتكافئة بين طبقتي الملاك لوسائل الانتاج والعمال. وإلى حد ما، يتفق رواد مدرسة فرنكفورت مع ماركس في هذا الشأن، حيث يجدون أن الدين أحد الأدوات الثقافية لفرض الهيمنة، نستثني من ذلك بعض الآراء المتأخرة، خصوصا مع يورغن هبرماس.

3.العائلة الجزائرية

1.3العائلة الجزائرية التقليدية:

إن الحديث عن العائلة الجزائرية التقليدية يشير عموما إلى بنية عائلية حافظت على وجودها إلى غاية مرحلة ما قبل الاستعمار على الأقل، والتي تمثل النواة القاعدية للبنية المجتمعية آنذاك والمتمثلة في القبيلة.

لقد اهتمت العديد من الدراسات والأبحاث التي عنيت بالمجتمع الجزائري، بتحديد سمات وخصائص العائلة الجزائرية التقليدية، فعرفت باعتمادها جماعة قرابية أبوية تعتمد خط النسب الذكوري. وهي ممتدة يشترك فيها ثلاثة أجيال

أو أربعة ذات المسكن، والذي يدعى عادة " الدار الكبيرة " أو " الخيمة الكبيرة ". بالإضافة إلى ذلك فهي توصف بكونها لا انقسامية؛ أي أنها تعتمد الملكية المشتركة للأرض أو القطيع. وعلى هذا يمكن القول أنها كانت تمثل وحدة انتاج واستهلاك واقامة.

يعد الأب أو كبير العائلة (قد يكون الابن الأكبر في حال وفاة الأب) قائدها الرمزي ومسيرها الذي يمثل "شرف" العائلة وينوبها في كل المناسبات ويشرف على احتفالاتها ويمارس كافة الصلاحيات، فيعين خليفته قبل وفاته وله أن يقصي من يخالف طاعته. يحظى الأب بالمهابة والاحترام من كافة أفراد العائلة فهو الحافظ للقيم والراعي لمصالح العائلة.

في الأخير، تجدر الإشارة إلى أن العائلة كانت تعد الحامل للرباط الاجتماعي في المجتمع التقليدي، والقائم أساسا على روابط الدم.

2.3 تحولات العائلة الجزائرية:

يرى عدي الهواري أن المجتمع الجزائري شهد جملة من التحولات التي ألقت بثقلها على العائلة الجزائرية، كانت بداية هذه التحولات مع الحقبة الاستعمارية الفرنسية، حيث انتهجت الحكومة الفرنسية آنذاك سياسة تفكيك اجتماعي واقتصادي، شملت تشتيت القبائل من جهة ومصادرة الأراضي من جهة أخرى، وقبل ذلك عمدت على تجزئ الأراضي وتوسيع الملكية الفردية لتسهيل عمليات البيع والشراء. (راجع: عدي، 1983)

واجهت مصادر دخل التي كانت العائلة التقليدية تعتمد عليها الكثير من التضيق بسبب ما ذكرناه آنفا، فطأ عدد من أفرادها للعمل المأجور لتأمين عيشهم في المدن أو في الأراضي التي صارت ملكا للمعمرين. وهكذا فإن تفكيك القبائل وإلغاء الملكية الجماعية ثم ظهور الدخل الفردي كل ذلك سمح بتصدع العائلة التقليدية ووحدها إلى حد ما .

في مرحلة ما بعد الاستقلال، يشير الباحث إلى أن العائلة نازعتها مجموعتان من العوامل، عوامل تعزز استمرار النموذج التقليدي بقيمه الأبوية كاستبطان الأبوين للقيم الأبوية وحاجة الفرد للتضامن العائلي التابع من أزمة البطالة وأزمة السكن وضعف الدخل ...، من جهة أخرى كانت هناك عوامل تعزز التغير، والذي انطلقت أساسا في مرحلة سابقة مع تفكك القبائل ومصادرة الأراضي، ثم تعزز بعد الاستقلال مع نزوح العائلات إلى المدن وتعميم استعمال النقود واتساع العمالة المأجورة ... وبالتالي ظهور الشكل الفردي للدخل، يضاف إلى ذلك التأثير بالنماذج الغربية عبر التلفاز وتصميم السكن الحضري الذي لا يتماشى مع المجموعات العائلية المتعددة النواة، وبذلك فقدت العائلة الأبوية التقليدية دعائمين أساسيين: الدعامة البيولوجية القائمة على رابطة الدم والتي كانت تؤمنها القبيلة، والدعامة الاقتصادية التي تؤمنها الملكية والميراث المشترك .

كان محصلة ذلك ظهور العائلة الموسعة، والتي تطرح نموذجين بناء على مؤشر مكان الإقامة، هما :

- العائلة المركبة : تشير إلى استقرار الأبناء المتزوجين في البيت الأبوي دون مغادرته، ولكن ضيق المجال من جهة أخرى سيفرض حدودا لهذا التوسع .
- الشبكة العائلية : تشير إلى عائلة موسعة لا تشترك مجموعاتها النووية مكان الإقامة، لكنها تبقى على اتصال في زيارات منتظمة وتجتمع في المناسبات . (راجع: Addi, 1999).

4. الدراسات السابقة

تناولت العديد من الدراسات السوسيولوجية موضوع الدين في المجتمع الجزائري، ونخص بالذكر تلك الصادرة عن الجامعة الجزائرية، فمن خلال تصفحنا للانتاج العلمي المدرج ضمن هذا الاطار، تبين أن أهم الاشكالات المطروحة قد عنت بدراسة المؤسسات الدينية مثل : الزوايا ، المساجد ، المدارس القرآنية ، ... وكذا دراسة الوظيفة التي يؤديها الدين في المجتمع، كالتى تشير إلى دوره في تنظيم الحياة الاجتماعية أو الضبط الاجتماعي أو بناء النظام الاجتماعي أو التكافل الاجتماعي و غيرها.

كما هو باد، فإن هذه الدراسات - في عمومها - تنتمي إلى المنظور البنائي الوظيفي، و الذي يهتم بدراسة البناءات و الأنساق الاجتماعية، و ينظر للدين باعتباره مرتبطا بالنسق القيمي، وأنه مخول بوظيفة الحفاظ على توازن النسق الكلي.

يعاب على هذا المنظور - على وجه الخصوص - اغفاله لفاعلية الفرد، فالفرد وفق هذا الطرح مجرد متلق سلبي لما تمليه عليه البناءات الاجتماعية. كما أن نظريته التفاضلية للمجتمع عموما، وللدين في هذا الاطار، تجعله قاصرا عند دراسة ومعالجة الموضوعات المتصلة بالتغير الاجتماعي والصراع. وهو منظور من المنظورات الكلاسيكية التي عرفت بقصورها من عدة جوانب، سواء تعلق الأمر بالجوانب النظرية منها أو المنهجية، أفما آن لنا أن نتجاوزها ؟!

في اطار دراستنا التي هي موضوع هذا المقال، عملنا على تلافي هذا القصور، وتجاوز هذا الطرح، والذي احتل نطاقا واسعا من الدراسات في الجامعة الجزائرية، حيث عاجلنا الدين من منطلق مفهوم الممارسة الدينية، والممارسة في هذا الاطار، مفهوم يتجنب الخوض في جدال يتصل بالنص الديني من جهة؛ أي أنه يشير للدين المعاش في الحياة اليومية، و يأخذ في الحسبان الجانب الذاتي والموضوعي للفعل الاجتماعي من جهة أخرى، ومن خلاله حاولنا فهم كيف تسهم تمثيلات الهوية الجماعية وتمثيلات الهوية الفردية في رسم وتشكيل أبعاد الفعل الاجتماعي من خلال ممارسة الفرد الجزائري للدين (الممارسة الدينية)، وقد اعتمدنا في ذلك منظور الفعل الاجتماعي و منظور مقارنة الهوية و المجالات الاجتماعية التي تتناول فهم تفاعلات و أفعال الفرد في المجالات التفاعلية.

5. الاجراءات المنهجية المتبعة

تشمل هذه الاجراءات تحديد المنهج المتبع، و الأدوات المنهجية التي تم اعتمادها، وكذا تحديد المجالات العمرانية والاجتماعية التي مستها الدراسة.

1.5 المنهج :

يشير المنهج بالنسبة لمادلين غراويتز إلى " .. مجموع متناسق من العمليات المستعملة لبلوغ هدف أو مجموعة من الأهداف، جملة من المبادئ التي توجه كل بحث منظم، جملة من المعايير التي تتيح اختيار التقنيات وتنسيقها، إنها تشكل بطريقة متفاوتة التجريد أو الحسية، والدقة أو الغموض، مخطط عمل تبعا لهدف.. " (غراويتز 1993، صص 10-11)

قد اعتمدنا في اطار هذه الدراسة على المنهج الكيفي، والذي يعرفه كل من دينزن ولينكون بأنه " .. يتكون من مجموعة من الممارسات الفكرية والمادية التي تجعل العالم مرئيا، هذه الممارسات التي تحول العالم إلى سلسلات من التمثلات.. " (أحجيج، فزة، 2019، ص 35).

يستند المنهج الكيفي على الفهم، والذي يسعى - حسب ماكس فيبر - إلى الوصول إلى المعاني التي يعطيها الفرد للفعل الذي يقوم به. وتقوم سوسيولوجيا الفهم عنده على ثلاث مراحل : أولا فهم المعاني التي يعطيها الفرد لأفعاله، ثم تأويلها من طرف الذات الفاهمة (الباحث)، وأخيرا التفسير الفهمي والذي يقف على الأسباب التي أدت إلى وقوع الفعل الاجتماعي. (بن عيسى محمد المهدي و بغدادي خيرة ، 2018، ص 988)

2.5 الأدوات المنهجية :

اعتمدت الدراسة بشكل أساسي على أداتين منهجيتين هما : الملاحظة و المقابلة.

1.2.5 الملاحظة :

يعتبر رمون كوفي ولوك فان كمبنيهود " المعاينة المباشرة " (يقصد الملاحظة) أنها منهج قائم على المعاينة البصرية، حيث يتم التقاط التصرفات لحظة حدوثها دون واسطة من مستند أو شهادة، وتنصب الملاحظة السوسيولوجية في الأساس على تصرفات الفاعلين باعتبارهم يكشفون عن أنظمة من العلاقات الاجتماعية، وكذلك ما تتضمنه من أسس ثقافية وأيديولوجية، وبذلك فإن حقل الملاحظة واسع ولا يتعلق إلا بأهداف العمل وفرضياته. (كوفي وكمبنيهود، 1997، ص 233)، ولقد استخدمنا الملاحظة بشكل أساسي في رصد المجال العمراني والاجتماعي، وكذا في بعض جوانب الممارسة الدينية، والتي ستسمح لنا المقابلة في التعمق فيها لاحقاً.

2.2.5 المقابلة :

تعد المقابلة طريقة من طرق جمع البيانات، تقوم على تسيير الاتصال المباشر بين فردين إما وجهاً لوجه وإما عن بعد عبر الهاتف أو الأنترنت، وباستعمال الأسئلة والحوار التفاعلي، ليتمكن الباحث من الحصول على آراء ومعلومات تخص المبحوث. (ماتيو، روس، 2016، ص451)، ولقد اعتمدنا في إطار الدراسة على المقابلة غير المقتنة في مرحلة أولى، استهدفت رصد المؤشرات، ثم المقابلة شبه المقتنة في مرحلة نهائية.

3.5 المجالات العمرانية :

تشمل كل معطى جغرافي بكل مقوماته الطبيعية والاقتصادية، ويتضمن المنتج العمراني للتفاعلات التي تتم في المجالات الاجتماعية، والتي تصبح بعد ذلك نتاجاً له، فالمجال العمراني يتأثر ويؤثر في المجال الاجتماعي. (بن عيسى، 2013، ص8).

شملت الدراسة مجالين عمرانيين هما منطقتي حاسي مسعود والطيبات والتابعتين اداريا لولايتي ورقلة وتقرت على التوالي .

6. نتائج الدراسة

1.6 المجالات الاجتماعية :

يعرف المجال الاجتماعي بأنه الحقل الذي تتم فيه عملية التفاعل بين المعنى ومحيطه الاجتماعي، ويختلف المجال الاجتماعي عن المجال العمراني، حيث يمكننا الوقوف على معالمة من خلال جملة من المؤشرات، هي كالتالي:

- طبيعة العامل أو المقوم الذي يحكم ويؤطر العلاقة الاجتماعية (عامل قرابي، عامل اجتماعي ثقافي، عامل عمراني، ... إلخ)
- طبيعة النشاط الاقتصادي المسيطر للأفراد المتفاعلين في نفس المجال العمراني.

- المستوى التعليمي للأفراد المتفاعلين في نفس المجال العمراني.
 - طبيعة علاقة ارتباط المبحوثين بالمجال العمراني محل الدراسة (سكان أصليين أو وافدين أو غير مستقرين)
 - التشابه والاختلاف في العادات والتقاليد بين الأفراد المتواجدين في نفس المجال العمراني وسبب ذلك
 - امتلاك كل الأجهزة ذات الاستعمال المنزلي الحديثة من عدمها. (بن عيسى، 2013، ص8ص13)
- رصدت الدراسة مجالين اجتماعيين يقابلان المجالين العمرانيين هما : مجال اجتماعي تقليدي في منطقة الطيبات و مجال اجتماعي حديث في منطقة حاسي مسعود.

1.1.6 المجال الاجتماعي الأول (مجال اجتماعي حديث)

تميز المجال الاجتماعي الحديث ، والذي رصدناه في المجال العمراني حاسي مسعود ، بمجموعة سكانية يوطر علاقاتها العامل العمراني بشكل أساسي، وقد تشكلت بفعل عامل اقتصادي، تمثل في رغبة الوافدين الحصول على فرصة عمل و تحسين ظروف المعيشة، وتميز المجال بتنوع أصول أفراده الاجتماعية، فهو يضم مختلف نواحي الوطن ، ويمكن تمييز ذلك ببسر من خلال تعدد اللكنات التي يتحدث بها أفراد المجال، وللتحقق من ذلك قمنا باختيار عينة شملت 30 عائلة من حي يعد من أكبر الأحياء بالمجال وأقدمها والذين يتمدرس أبنائهم باحدى الابتدائيات التابعة للحي فتبين مايلي:

جدول رقم 1: يوضح المجالات العمرانية الأصلية التي ظهرت في العينة

النسبة %	التكرار	المجال العمراني الأصلي للعائلة
16.67%	05	ورقلة
33.33%	10	الوادي
16.67%	05	تيزي وزو
33.33%	10	أخرى
100%	30	المجموع

لقد أظهرت العينة التي ضمت 30 عائلة وجود 12 مجال عمراني أصلي (الولاية الأصلية)، حيث وفدت 05 عائلات من ولاية تيزي وزو، ووفدت 05 عائلات أخرى من ولاية ورقلة، ووفدت 10 عائلات من ولاية الوادي، أما العائلات العشرة الباقية فجاءت من 09 ولايات مختلفة كالبويرة وبسكرة وغرداية وخنشلة وغيرها. وبذلك فقد أكدت العينة التنوع الذي تم رصده وملاحظته ميدانيا.

من جهة أخرى، تعرف التشكيلة السكانية بالمجال حالة من عدم الاستقرار إلى حد ما ، والذي تعززه عدة عوامل كصعوبة المناخ ، غلاء المعيشة (الكراء ، السلع ، ...)، صعوبة الحصول على ملكية، صعوبة الحصول على منصب عمل دائم، ... وغير ذلك.

من جانب آخر، فإن طبيعة النشاط الاقتصادي التي تميز المجال تتمثل أساسا في العمل المأجور، والذي توفره المؤسسات الصناعية على نحو خاص، التي يضمها المجال، بالإضافة إلى المؤسسات الخدمية الحكومية وغير الحكومية،

زيادة على ذلك يعرف المجال بعض الأنشطة التجارية والفلاحية.

أما بالنسبة للمستوى المعيشي للأفراد، فيمكن وصفه بالجيد بناء على عدة مؤشرات، كالاستخدام الملحوظ للسيارات النفعية، طريقة اللباس، الاقتناء الواسع للهواتف الذكية بين أفراد المجال، الاقبال المعتبر على السلع والخدمات غير الضرورية (الأثاث، مواد التجميل، النوادي الرياضية، رياض الأطفال ...)، الاعتناء بالجانب الجمالي في البناء العمراني، ...

أما بالنسبة للمستوى التعليمي، فيبدو أنه يحظى باهتمام متزايد، فإلى جانب التعليم الحكومي، تلقى مؤسسات التعليم الخاصة اقبالا معتبرا كمعاهد اللغات والتسيير والمعاهد التقنية والمدارس الخاصة

2.1.6 المجال الاجتماعي الثاني (مجال اجتماعي تقليدي)

فيما يخص المجال الاجتماعي التقليدي، فلقد رصدناه في المجال العمراني الطيبات، وهو يضم جماعة سكانية يوطر علاقاتها العامل القرابي، على نحو أساسي، بالإضافة للعامل الثقافي الناجم عن استقرار نسبي للتشكيلة السكانية. وقد تشكل تقريبا بفعل النمو الطبيعي لثلاث عروش حلت بالمنطقة واستقرت فيها، هي: عرش أولاد السايح وعرش أولاد جامعته وعرش أولاد عبد القادر، يتميز هذا المجال عموما بالتجانس، الذي يمكن ملاحظته بسهولة من خلال لكنه الحديث المتشابهة، وكذا عادات اللباس (اللحاف، العجار، الجبة، القندورة، ...)، كما يمكن الاستعانة باسم العائلة أو العرش لقراءة توزيع السكان ضمن المجال. وهو ما لفت انتباهنا عند نزولنا الميداني للمجال، حيث لاحظنا تكرار لقب واحد ضمن حيز محدد من العمران، ليتبين من خلال المقابلات التي تم إجراؤها أنه من الأمور المألوفة في المجال. للتحقق من ذلك، قمنا بأخذ عينة ضمت 30 عائلة من بلدية بن ناصر من قوائم الاستفادة من سكن عمومي إيجاري والصادرة عن مصالح البلدية فتيين مايلي:

جدول رقم 2: يوضح الأصول العائلية (العرش) التي ظهرت في العينة

النسبة %	التكرار	الأصل العائلي (العرش)
56.67%	17	أولاد جامعة
23.33%	07	أولاد عبد القادر
10%	03	أولاد السايح
10%	03	غير محدد
100%	30	المجموع

لقد أظهرت العينة تركز عرش أولاد جامعة بالمنطقة بنسبة كبيرة بالإضافة إلى تركز عرش أولاد عبد القادر بنسبة معتبرة، وهو ما توافق مع ما أدلى به المبحوثون، حيث أشاروا إلى تركز العرشين المذكورين ببلدية بن ناصر وتمركز عرش أولاد السايح ببلديتي الطيبات والمنقر. يمنح هذا التوزع المرصود أفضلية للعائلة والجماعة العائلية على نحو ملحوظ، والذي له تبعاته على الممارسات الاجتماعية عموما والممارسة الدينية في إطار هذا البحث، والذي سنناقشه بشكل أكثر تفصيل لاحقا.

هذا و تعرف التشكيلة السكانية في المجال نوعا من الاستقرار رغم صعوبة العيش ، يعززه - في نظرنا - روابط القرابة التي تميز المجال بالإضافة إلى ملكية الأرض. من جانب آخر، فإن طبيعة النشاط الاقتصادي التي تميز المجال تتمثل أساسا في النشاط الفلاحي، لكونها منطقة صالحة للزراعة وهو ما ساهم في الاستقرار فيها وتشكل عمارتها. يدعم ذلك نصيب من العمل المأجور الذي يوفره القطاع الحكومي بالإضافة إلى حيز ضيق من الأنشطة التجارية. أما بالنسبة للمستوى المعيشي للأفراد، فلعل أحسن ما يوصف به أنه في حدود المتوسط وأنه يحقق الكفاف عموما. يمكن الاستدلال على ذلك من خلال الحيز المحدود والضيق للأنشطة التجارية، و الذي يقتصر في أغلب الأحيان على المستلزمات الضرورية و المنتوجات الفلاحية التي توفرها المنطقة. أما بالنسبة للمستوى التعليمي، فهو محصور في حدود ما يوفره القطاع الحكومي.

2.6 رصد الممارسات الدينية في المجالين المدروسين:

- توصلت الدراسة الميدانية وفقا لما تم ملاحظته والادلاء به في المقابلات لعدة نتائج من أهمها ما يلي:
- تعدد الزوايا وشعبيتها في المجال الاجتماعي التقليدي مقابل نقصها وتراجعها في المجال الاجتماعي الحديث.
 - بروز النسب الشريف في المجال الاجتماعي التقليدي مقابل ضعفه في المجال الاجتماعي الحديث.
 - تعرف المؤسسات والأنشطة الدينية كثافة و وتيرة نشاط معتبرة في المجال الاجتماعي التقليدي مقارنة بالمجال الاجتماعي الحديث (المساجد، الجمعيات الدينية، الأحزاب الاسلامية، الزوايا، أنشطة تحفيظ القرآن،...).
 - يكون انشاء الزوايا والاشراف عليها حكرا للأفراد المنتمين للنسب الشريف في المجال الاجتماعي التقليدي المدروس وفق ما أدلى به المبحوثون في مقابلاتهم.
 - تأخذ بعض المؤسسات الدينية في المجال الاجتماعي التقليدي أسماء أعلام بارزين في الجماعة العائلية، على سبيل المثال: مسجد محمد السايح، مسجد الشيخ محمد اللقاني، مسجد العلامة محمد بن سليمان، ...

7. خاتمة : خلاصات عامة

توصلت الدراسة من خلال النتائج التي ذكرنا بعضها آنفا إلى عدة استنتاجات، نلخص أبرزها فيما يأتي:

أولا: العائلة كمجال مشكل للممارسة الدينية لدى الفرد الجزائري

تعد العائلة مجال التفاعل الاجتماعي الأول لدى الفرد، ولا زالت تحتفظ في المجتمع الجزائري بأهمية بارزة في حياة

الفرد الجزائري، فهي مجال نشأته و المجال الذي يحافظ على اتصال به في مختلف مراحل حياته. لا يتعلق الأمر بديمومة التفاعل فقط، بل يتعدى ذلك إلى قوة الروابط التي تصل الفرد عادة بهذا المجال، ما يدفع للافتراض بأهمية هذا المجال في تشكيل تمثيلات الفرد عموما والتمثيلات المرتبطة بالممارسة الدينية في هذا الاطار.

رصدت الدراسة - في هذا الصدد - نموذجين مختلفين للعائلة بناء على طبيعة المجال الاجتماعي اللذان تنتميان إليه، هما :

- نموذج العائلة في المجال الاجتماعي التقليدي :

هي عائلة تقليدية، تتميز بامتدادها في المكان و الزمان، وذلك باحتلالها حيزا جغرافيا مشتركا وتعاقب أجيالها عليه، فالعائلة في هذا المجال تولت تأسيس العمران واستمراره، والعمران علامة وجودها واستمرارها، وبذلك يقال : " هذا عمران بني فلان ".

- نموذج العائلة في المجال الاجتماعي الحديث :

قد تأخذ شكل العائلة الزوجية أو شكل العائلة الموسعة، تعرف بعلاقتها الطارئة مع المكان، والتي ترتبط غالبا بتأمين ظروف المعيشة. يفرض المجال عليها حتمياته فيحدد من توسعها، كما تفقد مركزيتها فيه بتعدد الأصول الاجتماعية المنتمية للمجال.

وفقا لهذين النموذجين، يمكن الحديث عن نموذجين للممارسة الدينية، أحدهما يتشكل في سياق متصل بالعائلة، وآخر مستقل عنها لحد ما.

ثانيا: نماذج الممارسة الدينية :

- نموذج الممارسة الدينية في المجال التقليدي : ممارسة دينية ذات صلة وثيقة بالجماعة العائلية

في مجال اجتماعي أخذت العائلة طابعا أساسيا فيه، كان للممارسات الدينية نصيبها من ذلك، يظهر ذلك في عدة صور لعل أهمها ما سنأتي على ذكره :

- **النسب الشريف :** عادة ما يكون شائعا في هذا المجال، ويقصد به أن تعرف جماعة عائلية معينة " عرش " بانتهاء نسبها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وهو ما يمنحها نوعا من الاصطفاء الاجتماعي الذي يظهر في الحياة اليومية في العديد من المناسبات، على سبيل المثال من الشائع أن يقال " السايحي يدق " ويقصد بذلك أنه إذا دعا على أحدهم فإن دعائه سيستجاب، لذا لا بد أن يراعى عند التعامل معه ما يحفظ له قدره ذلك فيؤمن جانبه. وهم نسل "مبارك"، عادة ما يظهر فيهم الأولياء الصالحون، الذين يعرفون بكراماتهم، كما يعرفون بلعناتهم، فيطلب من عاصريهم منهم الأمان، وتجد ذكراهم القصص المتناقلة عبر الأجيال .

- **الزوايا :** تنتشر الزوايا في المجال التقليدي، وتعرف كذلك في المجال الحديث، إلا أنها في الأول أكثر شيوعا و نفوذا وشعبية، و تختلف الزوايا في المجال التقليدي عن تلك التي في المجال الحديث من عدة جوانب، إذ أنها تقتزن بشكل واضح مع العائلة في الأول، وهي في العادة حكر للعائلات الشريفة، يؤسسها أحد الأشراف)

من ينتسب إلى نسب شريف) و يتعاقب عليها من بعد وفاته أبنائه، بما يشبه الإرث العائلي. تقتزن عادة بقبة فيها ضريح مؤسسها، و التي ستُخلّد ذكراه عبر أجيال جماعته العائلية، حيث تصبح مزارا تُتُلا في ه الدعوات وتُتوسل البركات.

- **المساجد :** المساجد هي الأخرى كانت ذات صلة بجماعة العائلية في المجال التقليدي، وإن لم يكن ذلك بشكل مباشر، ساعد على ذلك التوزع الذي يظهره المجال على أساس عائلي، إذ يتمركز كل عرش تقريبا في جانب معين من المجال ، و كل لقب عائلي من الألقاب العرش سينفرد هو الآخر بحيز ضمنه، وبذلك يتحول مسجد الحي إلى مكان تجتمع فيه الجماعة العائلية، وعادة ما يحمل المسجد اسم أحد أعلامها (رموزها الدينيين).

إلى حد هذه النقطة، سنكون قد وضحنا الصلة والألفة التي يظهرها نموذج الممارسات الدينية مع الجماعة العائلية في هذا المجال، لكن هل هذا كل شيء ؟

يبدو أن هناك ما يتجاوز ذلك، خصوصا مع تزايد عدد المتعلمين، الذين تحصلوا على تعليم جامعي، والذين يظهرون رفضا " لعقيدة الأجداد " - على ما يبدو - وفقا لما أدلو به، إلا أن نموذجهم "الجديد" يلقي مقاومة شديدة، حتى في حدود نقاشاتهم العائلية، ما يدفعهم في كثير من الأحيان إلى المسايرة، وإن كانوا يضمنون خلاف ذلك. لكن لا بد من الإشارة إلى أن "النموذج الجديد" يلقي مقاومة أخف خارج مجال الذي يتمركز فيه النسب الشريف، ما قد ينبئ بحدوث تغيرات في هذا الإطار.

- نموذج الممارسة الدينية في المجال الحديث : ممارسة دينية أكثر فردانية

أكثر ما يميز المجال الاجتماعي الحديث في هذا الإطار، تعدد الأصول الاجتماعية التي تشكله، ما يفقد العائلة مركزيتها فيه، و النسب الشريف وإن كان موجودا فهو لا يحظى بالرمزية التي أشرنا إليها سابقا بعد أن فقد قاعدته البشرية والجغرافية وحتى العمرانية، لكن ذلك لم ينفي حضور المقدس.

من جهة، يعرف المجال الاجتماعي الحديث بضعف الضبط فيه، ما يدفع أفراداه إلى تأمين سقف أخلاقي مشترك، و في هذا الصدد يتم اللجوء إلى الشريعة الإسلامية عموما باعتبارها النموذج الأكثر ألفة واجمعا بين الأفراد. ولكن من جهة أخرى، لا يقيد هذا الإجماع حرية التأويل إلى حد ما، إذ لا يوجد عموما جهة تحتكر هذه السلطة، فيظهر بذلك التعدد على المستوى الجماعي كما قد يظهر على المستوى الفردي.

المراجع

- أحجيح، حسن، وفزة، جمال. (2019). البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية : نظريات وتطبيقات. ط1. المغرب: فضاء آدم للنشر والتوزيع.
- أكوافيفا، سايننو، وباتشي انزو. (2011). علم الاجتماع الديني: الاشكالات والسياقات. (ترجمة عز الدين عناية). ط1. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة.
- بن عيسى، محمد المهدي. (2013). من أجل سوسيولوجيا لمجتمع الاتصال: الاذاعة المحلية في الجزائر، ذات أم موضوع. مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، (العدد 10)، 1-23.
- بن عيسى، محمد المهدي، وبغداددي، خيرة. (2019). المنهج الكيفي 2: الفهم، التأويل والتفسير في مقارنة الهوية والمجالات الاجتماعية. مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد 11، (العدد 4)، الجزائر: جامعة قاصدي مرباح ورقلة. 251-264.
- عدي، الهواري. (1983). الاستعمار الفرنسي في الجزائر : سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960. (ترجمة جوزيف عبد الله). ط1. لبنان: دار الحداثة .
- غراويتز، مادلين. (1993). مناهج العلوم الاجتماعية: الكتاب الثاني منطق العلوم الاجتماعية. (ترجمة سام عمار). سوريا: المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر.
- كابان، فليب، وفرونسو، درتيه جان. (2010). علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات. (ترجمة إياس حسن). ط1. سوريا: دار الفرقد.
- كيفي، ريمون، وكمبنهود، لوك فان. (1997). دليل الباحث في العلوم الاجتماعية. (ترجمة يوسف جباعي). ط1. لبنان: المكتبة العصرية.
- ماتيوز، بوب، وروس، ليز. (2016). الدليل العلمي لمناهج البحث في العلوم الاجتماعية. (ترجمة محمد الجوهري). ط1. مصر: المركز القومي للترجمة.
- Addi, lahouari. (1999). **les mutations de la société algérienne : famille et lien social dans l'algérie contemporaine**. Paris :la découverte
- Little , William, and Givern , Rom Mc . (2014) . **Introduction to Sociology**. [On-line book].<http://open.bccampus.ca>

الممارسة الدينية والعائلة الجزائرية: قراءة سوسيولوجية (دراسة ميدانية بمنطقتي حاسي مسعود والطيبات)

كلثوم بن زغمان أ.د./ خيرة بغدادي
